اسم الكتاب: غزة مدينة الحرب والسلام

اسم الكاتب: آلاء فتح الرحمن محمد حمد/السودان

إشراف مجلة نور الثقافية

أمّا قبل:

يظن العالم أنّ مع كل غارة إسرائ-يلية على بيتٍ في غ-زة، تقتل أسرةٌ فقط مكونة من أبوين و بضعة أبناء. وحدها إس.رائيل تُدرك أنه مع كل طفلٍ تقتله، فإنها قد تخلصت من مقاومٍ من كتا.ئب القس.ّام في المستقبل، أو طبيب، أو مهندس، أو معلم. وحدها إس.رائيل تُدرك أنها تقتل نُطفًا لم تتخلق بعد، وحدها تُدرك أنه عليها قتل البذور قبل أن تغدو شجرة.

أمّا بعد :

قبلت السنين العِجاف على غزة، وقُرِعَت طبول الحرب، فغزة مدينة الحرب والإسلام معًا. لذلك، السلام في قلب ذلك الرجل الذي يحمل أشلاء أبنائه ويقول: "اللّهم خُذ من دمنا حتى ترضى". لذلك السلام في قلوب النساء اللاتي يَنمن بثياب الصلاة كي لا يظهر شيءٌ من عوراتهن إذا انتُشِلن من تحت الأنقاض.

في مدينة غزة في مخيم جباليا كانت هناك أسرة صغيرة تجتمع على مائدة القرآن وتتدفأ بمنهج النبوة المحمدية، إنها أسرة العم أحمد وزوجته السيدة الموقرة فاطمة ولهم ابنتان وثلاثة أبناء. أصولهم من مدينة حيفا ولكن جذورهم غُرست في مخيم جباليا على أيدي أجدادهم منذ عام 1948 (النكبة الفلسطينية الإسرائيلية) وما غزة إلا امتدادٌ للقدس وحيفا ويافا. أسماء ذات الـ 22 ربيعاً هي الابنة الكبرى، كانت طالبةً في الجامعة الإسلامية في قطاع غزة وكانت مخطوبة لزميل لها في الجامعة اسمه حمزة وكانا على مشارف التخرج وبعدها سيُعقد قرانهما ويجتمعا تحت سقفٍ واحد. أما محمد ذو الـ 19 عاماً فكان شاباً وسيماً تخلله بعض سلوكيات المراهقة الطائشة، نشأ أحمد بين حلقات صفوة الحفاظ وحفظ القرآن الكريم كاملاً، كانت قدوته جنود كتائب القسّام وصورته الذاتية عن نفسه في المستقبل القريب. كان حلمه أن يصبح جندياً ضمن كتائب القسّام وشغفه أن يتوج بتلك العصابة الخضراء التي تزيّن جباههم. كانت الحجة فاطمة أم محمد منيتها أن تشد رحالها إلى المسجد الأقصى المبارك وأن ترى ابنها علي الصغير طبيباً وتزف ابنتها أسماء عروساً لبيت حبيبها حمزة.

في ذات صباح، كانت الحجة فاطمة تحتسي فنجان القهوة الصباحي مع ابنها محمد، ورائحة الخبز الزكية تفوح من تنّورها، ويتبادلان أطراف الحديث.

الحجة فاطمة: أتعلم يا بُنيّ محمد أن لي أمنية أدعو الله أن يُبلِغني إياها قبل منيتي؟

محمد: أطال الله في عمرك يا أُمّي ورزقني برّكِ. وما هي أُمنيتكِ يا أمي؟

الحجة فاطمة: أن أصلي في رحاب المسجد الأقصى المبارك مُحرراً مُطهراً.

محمد: بالطبع يا أمي، سنُصلي جميعاً في رحاب المسجد الأقصى مُحرراً، فهذا وعد الله لنا في القرآن منذ 1400 سنة. قال تعالى في سورة الإسراء: (فإذا جاء وعد الآخرة ليسو وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا). سندخله إن شاء الله محررين كما دخله سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فاتحاً.

الحجة فاطمة: بإذن الله يا بُنيّ.

محمد: عندما أبلغُ نصاب الانتماء إلى كتائب القسّام، ستفخرين بي يا أمي وأنا أمشي بكل ثبات أمام دبابة الميركافا المُدججة بأجهزة الاستشعار وأرشقها بقذيفة الياسين.

الحجة فاطمة: حفظك الله يا بُنيّ وقرّ عيني بكَ وجعلك ذخراً لفلسطين الحبيبة.

انتهت الجلسة بقسمة رغيف الخبز المُسمر من التنور بين محمد ووالدته.

دخلت عليهم أسماء وقبّلت والدتها واستأذنت للخروج إلى دوامها في الجامعة. تقابل حمزة وأسماء في كافتيريا الجامعة ليتناقشا في مشروع بحث التخرج مع زميليهما سامي وهدى وبعد أن تناقشوا واتفقوا على خطة البحث، غادر سامي وهدى الجلسة وبقي سامي وهدى لوحدهما.

حمزة (بعد أن تنفس الصعداء): أخيراً يا أسماء، غدا يوم زفافنا قاب قوسين أو أدنى. عمّا قريب سنوقع أسماءنا على غلاف ملف بحث التخرج، وبعدها على وثيقة عقد قراننا. لكن اسمكِ محفورٌ في قلبي مذ أربع سنواتٍ مضت.

أسماء: الحمد لله يا حمزة، صبرنا ونلنا، وأسأل الله أن يبلغنا لحظة عقد قراننا كما قدّر لقلبي أن ينعقد بحبك من قبل.

حمزة: دعينا مناقشة البحث، ولنناقش أسماء ابنتنا الجميلة كأمها.

أسماء (وقد احمرّت خدودها خجلاً): لو رزقنا الله ببنت، سنسميها شام، ولو رُزقنا بصبيّ سنسميه كنان.حمزة: ستكون شام جميلة كجمال الشام، وخضراء العينين كزيتون الشام، ورقيقة القلب كقلب أمها.

بدد هدوء تلك الجلسة الودية اتصال من هدى لتخبر أسماء وحمزة بدخول الدكتور إلى قاعة المحاضرات.

مرت الشهور وتخرجت أسماء، وصار يوم زفافهما قاب قوسين أو أدنى. كانت أسرة العم أحمد كلها مشغولة بتجهيزات يوم الزفاف وضيافة المعازيم.

أخيراً جاء يوم الزفاف وعقد القران، وارتدت أسماء فستان زفافها الأبيض متوجةً رأسها بأكليل ورد أبيض كبياض الثلج. وفي تلك اللحظة التي تبادل فيها أسماء وحمزة الخواتم، نقضت إسرائيل الهدنة وبدأت الغارات الإسرائيلية تتراشق على غزة كطير الأبابيل على أصحاب الفيل. هكذا الحال في غزة: حرب وسلام في آن واحد.

سقطت غارة إسرائيلية على بيت العم أحمد، حيث كانت الأسرة والمعازيم مجتمعين. وانتهت قصة حمزة وأسماء في اللحظة التي بدأت فيها، لتبدأ من جديد في الجنة.

تلك الغارة لم تقتل حمزة وأسماء فقط، بل قتلت شام وكنان (النطف التي لم تتخلق بعد)، وقتلت محمد، أحد جنود كتائب القسام، وعليّ، طبيب غزة المستقبلي. كما قتلت على إثرها آلاف المرضى الذين كان سيُكتب لهم الشفاء على يديه.